السـياق ودوره بـين المبـدع والمتـلقي

د. محمد عمر أبو ضيف محمد(*)

المقدمة:

الحمد لله الذي أحلّنا محلة الفهم، وحلانا حلية العلم، وملكنا عقال العقل، وزيننا بنطق المنطق.. وصل اللهم وسلم وبارك علي أفصح العرب لسانا، وأعظمهم بيانا، اشرف نبي ارشد ودل، وعلي آله وأصحابه ما أطل سحاب فطل ويل .. وبعد...؛

إن السياق وفهمه من أهم الضوابط المعينة للأذهان علي الفهم الصحيح، فإن الفهم الصواب هو أساس التعامل بين الناس، علي المستوي الحياتي العادي، فإذا ما ارتقي الإنسان واخرج نصوصا أدبية؛ لأغراض الانتفاع والإمتاع، كانت أغراضه وآدابه ليست لها قيمة إذا لم تفهم، أو فهمت خطأ علي غير وجهها، لذا وجب الحرص من المبدع قبل المتلقي علي صواب الفهم ووضوح الدلالة وصحة الرؤية، وهذا يتحقق بضوابط وقواعد وضعها علماء كل فن في كل عصر ومصر، بل في كل لغة، من أهمها السياق لذا شرعت في كتابة تلك الوريقات، وفي الواقع أن السياق يحتاج إلي بحوث كثيرة تستوفيه وتبين أهميته، وقد كتبت فيه بحوث علي مستوي اللغويين وأهل الدراسات القرآنية، لكن لم تقع يدي علي بحث كتبه أهل الأدب إلا ما كان من المهتمين بالكتابة في البلاغة، وعندهم يطلقون عليه الحال، وبعضهم يطلقه علي مقتضي الحال، وبعضهم يدرسه تحت المقام،فاستعنت بالله عزوجل وقررت أن أدلي بدلوي فيه...،

وقد جاء هذا البحث في تمهيد- صواب الفهم من لوازم التواصل- وأربعة مباحث- مفهوم السياق، السياق والقرآن الكريم، السياق والحديث النبوي، السياق والشعر- وخاتمة بها نتائج البحث.

وكان البحث اكبر حجما وقد أعدت صياغته ليتناسب وقواعد النشر..ولقد بذلت فيه وسعي واستفرغت جهدي... فإن جاء في صورة حسنة فالفضل لله وحده وله الحمد من قبل ومن بعد وان كان فيه نقص أو قصور فمن قصر ذراعي وقلة إطلاعي وضيق عطني... والله يجبر ويغفر وهو من وراء القصد والهادي إلي سواء السبيل

(*) مدرس الأدب والنقد في كلية اللغة العربية بجرجا.

تمهيد: صواب الفهم من لوازم التواصل

" خلق الله الإنسان وكرمه علي خلقه جميعا حيث سواه بيده ونفخ فيه من روحه وأسكنه جنته لأجلٍ قدّره ...ثم أهبطه إلي الأرض ليعمرها، ويسير فيها بالإصلاح علي نهج وضعه له، وقد خلق له من نفسه الزوج التي يسكن إليها، وتكون معه سببا معينا لتمام إعمار هذه الأرض، ثم نشر منهما ذرية ملأت أركان الأرض وعمرت جوانبها، ولابد من وسيلة للتفاهم والتواصل بين الإنسان ومن يشاركه من جنسه؛ حتى يتم التعايش بينهم، لاسيما وأن هذا الإنسان مدني بطبعه، يميل إلي مخالطه جنسه، والتعايش في جماعات[1]"ولان الحياة لن تستقر، والدنيا لن تكتمل، إلا بالتواصل بين الأفراد بعضهم مع بعض، هذا التواصل ينبني علي الفهم المتبادل بين الأفراد والجماعات، وكلما كان هذا الفهم صوابا صحيحا، كلما كمل التواصل، وحسن التعايش، أما إذا حدث ليس في الإفهام، وعدم وضوح في الرؤية، أو حمل كلام الناس لبعضهم علي غير وجهه، أو فهم المتلقي من الملقي خلاف مراده، ترتب علي ذلك مفاسد ومضار كبيرة ؛لذا كان لابد من وضع آليات وضوابط، تضمن الفهم الصواب، وتحول دون الوقوع في الخطأ أو اللبس بين الناس، وقد قام بذلك علماء كل لغة وأرباب كل فن ؛ حتى تكتمل الحياة باكتمال التواصل بين أفرادها، وقد كان من أهم الضوابط التي تعين علي الفهم، وتكمل الرؤية حول النصوص المختلفة، هو معرفة السياق لكل نص، وفهم الملابسات التي أحاطت به، أو كانت سببا في ظهوره "لأن اللغة ظاهرة اجتماعية، فيكون الفهم متوقفاً على النظر إلى الكلام في ضوء السياق[2]" ولأنه عن طريق السياق قد تحل إشكاليات كثيرة في عالم البيان فمثلا:السياق له "أثر في تحديد الزمن النحوي[3]، وفي حل بعض مشاكل

---

1 أدب الإشارة أهميته وقيمته وضوابطه. للباحث. ص:٦ .ط.دار الفكر بجرجا . أولي ١٤٢٧هـ٢٠٠٦م.

2 نظرات في اللغة. محمود رضوان: ص ٤٦٤. ط١. بني غازي: ١٩٧٦م.

3 اللغة العربية: معناها ومبناها. تمام حسان: ص ٢٤٢. الدار البيضاء: دار الثقافة، د.ت.

التنافر، وتوالي الأضداد[1]، كما يحول السياق دون إنشاء جمل مستقيمة نحوياً ولا معنى لها، كقولنا: تأكل التفاحة الولد[2]، إلى غير ذلك من المجالات... وكذلك للسياق دخل كبير في بناء الصورة[3] وتركيب أجزائها

---

1 اللغة العربية : ص ٢٦٢.

2 مدخل إلي اللسانيات. بلوار رواندا: ص١٤٨. ترجمة بدر الدين القاسم. مطبعة جامعة دمشق ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

3 والصورة الفنية :هي الوعاء القادر على توصيل المعنى والوجدان إلى الملتقى، وهي أعم من أن تكون حقيقة أو مجازاً، ولا يلجأ إلى التعبير عن الصورة بالمجاز إلا عند العجز عن التعبير عنها بالحقيقة.وهي تستمد وجودها من:المثير الذي يحرك الوجدان وينشط الخيال والخواطر.والنقاد المحدثون يرى كل منهم رأيا في الصورة من وجهة نظره :فيرى الدكتور مصطفى ناصف :أن الصورة :تستعمل – عادة– للدلالة على ماله صله بالتعبير الحسي، وتطلق أحيانا مرادفة للاستعمال الاستعاري– الصورة الأدبية.د: مصطفى ناصف ص ٣:٨ :ط دار الأندلس :بيروت .الثالثة ١٩٨٣– ويرى الدكتور:سعيد الورقى أن " الصورة هي وسيلة الأدب إلى التشخيص،ولها طرائق عديدة منها التشبيه والاستعارة والمجاز والرمز والأسطورة ... وغيرها من هذه الطرائق التي تمكن الأديب من أن يثير بألفاظه المختارة وصوره الجديدة كل ما يمكن إثارته في نفس القارئ من مشاعر وذكريات :فلا يقتصر في أداء المعنى على مجرد سرده وبسطه بطريقه مستقيمة مباشرة– في الأدب والنقد الأدبي.د: سعيد الورقى: ص٥٩ .ط.دار المعرفة الجامعية ١٩٨٩م – ويرى الدكتور محمد التونجى أن الصورة الفنية هي :" ما ترسمه مخيلة الأديب باستخدام اللفظ كما ترسمه ريشة الفنان باستخدام الألوان وتكون متأثرة بحالة الأديب النفسية ! إمّا بهيجة وإمّا كئيبة يبعثها الأديب من خاطره، وذهنه فتجئ مادية محسوسة، أو معنوية ذهنية...–المعجم المفصل في الأدب.د: محمد التونجى.٢/٢٩١ ط :دار الكتب العلمية – بيروت .الأولى ١٩٩٣م– ويرى الدكتور:عبد القادر القط :أن الصورة الفنية هي:" الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات ؛بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص؛ ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة مستخدما طاقات اللغة،و إمكاناتها في

وإخراجها في شكل واضح مؤثر، لاسيما وأن الفهم الكامل للنصوص يتوقف علي معرفة السياق، ولا يكتمل إلا به وهذا ما سيتضح إن شاء الله في ورقات البحث .

"والذي يقلب في البيان العربي كله، نثره وشعره، يلحظ (أهمية السياق ويري) ذلك جيداً ،وعلي رأس هذا البيان المثل الأعلى المحتذي في البلاغة والفصاحة وهو القرآن الكريم كتاب الله عز وجل والذي حفظه الله – تعالي– بنفسه ثم حديث النبي – صلي الله عليه وسلم– حيث يلحظ حرص الرواة علي نقل ألفاظه وإشاراته وأحواله تري الراوي مثلاً يقول : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم – كذا – وأشار بإصبعيه، أو أشار إلي الأرض، (أو احمر وجهه، أو كان متكئا فاعتدل .....إلخ الصور التي توضح الملابسات والظروف المحيطة بالنص توضيحا تاما أو بمعني آخر توضح سياق النص

الدلالة، والتركيب والإيقاع، والحقيقة، والمجاز،والترادف، والتضاد،و المقابلة، والتجانس ... وغيرها من وسائل التعبير الفني– الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر.د.عبد القادر القط .ص ٣٩١ ط :دار النهضة العربية .بيروت. الثانية ١٩٨٧م–وهذه التعريفات تحتاج إلي مراجعات ومناقشات وقد ناقشتها في كتابي (أدب الإشارة)ينظر:ص: ٣٠: ٣٤– .والنقد الغربي لا يختلف في تعريفه للصورة الفنية عن النقد العربي الحديث ؛ بل يكاد يتفق ! . ونأخذ أمثلة لتعريف النقاد الغربيين لمفهوم الصورة الفنية . و هذه التعريفات أوردها الدكتور : محمود الربيعي في كتابه :(في نقد الشعر)، فيرى جونسون :أن الشعر هو: "فن جمع المتعة إلى الحقيقة! حيث يُدعى الخيال لمساعدة المنطق .وجوهره الابتكار ". ويعرفه ماكولاى :".... الفن الذي يصنع بالكلمات ما يصنعه الرسام بالألوان !!"و يعرفه جون ستيوارت مل :" ما الشعر غير الفكرة والكلمات التي تحل العاطفة نفسها فيها بطريقة تلقائية ويراه راسكين : " إرساء ركائز نبيلة للعواطف النبيلة عن طريق الخيال!"ويعرفه ادجار آلان بو :" الخلق الموقع للجمال" ينظر : في نقد الشعر : نشر مكتبة الزهراء .القاهرة١٩٨٥ ص ٨،٩.

بدقة شديدة)[1].وهذه النصوص التي حرص الرواة علي نقلها ليست من العبث ، كما أنها ليست من النوافل في عالم البيان، بل إن لها دوراً فاعلاً في الدلالة وبلاغتها قد لا يقل عن دور الكلمة، لذلك نقلها الرواة كما هي دون أن يغيروا فيها ... كانوا يذكرونها لفظا مع فعلها كما فعلها النبي (صلي الله عليه وسلم) لفهمهم لقيمتها وان النبي فعلها وهو يريدها لعلمه لقوة أدائها وتأثيرها في المتلقي .. فكان الرواة ينقلونها نقلا أمينا راويا عن راوي كما رأها كل عمن سبقه حتى تصل إلى أول راو عن رسول الله (صلى الله عليه و سلم)[2]" يحكونها ويحكون ما حولها من أحداث ليكون الفهم صوابا علي مراد صاحب النص، وهكذا في كل نص سواء اتسمت النصوص بالتقديس (القرآن الكريم والسنة المطهرة)،أو حتى التي لا تتسم بالتقديس، كأي نص لأي إنسان، سواء كان النص في الناحية الدينية أو الأدبية أو الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية..إلخ، كلها لابد أن تفهم علي وفق مراد صاحبها، أو علي الأقل علي وفق ما تؤديه من معاني، مرتبطة بالقواعد والضوابط اللغوية والأسلوبية للغة التي كتبت بها .

وحتى لا يجنح الخيال ويطوح بصاحبه بعيدا عن المعاني الحقيقية للنصوص، أو المراد منها كما قصد المبدع من نصه، كان لا بد من معرفة السياق الذي كان حول النص وذلك بالنسبة للمتلقي.

كما انه من ناحية أخري لكي يخصب الخيال الأدبي، وينمو للمبدع والمتلقي علي حد سواء، لابد أن يراعيا السياق الحالي والمقالي، أو بتعبير آخر كل الملابسات حول النص وما تؤديه مفرداته، لان أهل الأدب يهتمون بالخيال[3] ويعلون من قيمته في الأعمال الأدبية ويبحثون عنه ويعطون الأديب

---

1 ما بين القوسين إضافة جديدة للباحث علي كلامه في بحثه المنقول منه يقتضيها المقام .

2 أدب الإشارة ص: ١٠، ١١.

3 الخيال هو الذي يهب العمل الأدبي رشاقته، ويفرق بينه، وبين غيره من الأعمال غير الأدبية، إنه لمسة الفنان بروحه الحساس المنطلق، حين يتناول المعاني تناولا فنيا ملموسا، ويسمو بها على أجنحة الخيال الرفرافة إلى معارجه الفنية المبدعة، ويصعد بها على رفيف تشبيهاته ومجازاته، وكناياته إلى مرافئه المجنحة

قيمة بقدر قوة تأثير خياله الأدبي علي أعماله وبالتالي علي المتلقين لأن " الصورة الرائعة، والخيال المبدع لهما عظيم الأثر في تقدير العمل الأدبي،و في الحكم عليه، وكلما كانت الصور على جانب من الإتقان، والدقة، و سيقت من خلال شعور صادق كانت جيدة"[1].ولا تعرف هذه القيم إلا إذا توفر الفهم الصحيح الدقيق لهذه الصور، وإلا فما فائدة صور رائعة خلابة لا تفهم؟!،أو تفهم مغلوطة!.

المبحث الأول: مفهوم السياق

قبل أن نتحدث عما يعني السياق في هذا البحث نتحدث بإيجاز عن بعض معانيه **في اللغة** .

ذهب ابن فارس أن "السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حدو الشئ . يقال: ساقه يسُوقه سَوقاً، والسَّيِّقة: ما استيق من الدواب، و يقال سقتُ إلى امرأتي صَدَاقها، وأسَقتُه . والسوق مشتقة من هذا، لما يُساق إليها من كل شيئ، والجمع أسواق . والساق للإنسان وغيره والجمع سُوق، وإنما سميت بذلك لأن الماشي يتساق عليها[2]".

وفي (المحيط في اللغة)[3] : والمُتَساقُ: التّابعُ.وقال ابن منظور :"السَّوق : معروف . ساق الإبل وغيرها يسُوقها سَوْقاً و سياقاً، وهو سائق وسوَّاق،

العصماء، فيعرضها في أحسن صورة، ويلبسها فاتن شفوفه، ويخلع عليها صوره الحالية الموشاة – مناهج البحث الأدبي د. سعد ظلام. ص١٥٧ مكتبة نهضة الشرق ١٩٩٦–". فالخيال إذا من أهم أدوات الأديب الموفق، وهو الذي يرى الأشياء والأحداث، ويدرك ما فيها من أسباب الروعة أو الإشفاق، ثم يعرضها علينا كأنها حقيقة ملموسة، وهو إذ يعرضها علينا " لا يكتفي – غالبا– بعرضها صامتة، بل مفسرة مصورة أو مجسمة عسى أن تدرك أسرارها فيشملنا الإعجاب أوالرحمة أوالإشفاق– أصول النقد الأدبي .أحمد الشايب ص ٢١١مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثانية سنة ١٩٧٣

1 الصورة الأدبية. د. مصطفى ناصف ص ٢٦٣ مكتبة نهضة مصر ١٩٥٨م

2 مقاييس اللغة : ٣/١١٧.

3 المحيط في اللغة : ١ /٤٩٠ .

شُدِّد للمبالغة ....وقد انساقت و تَساوَقتْ الإبلُ تَساوُقاً إذا تتابعت، و كذلك تقادوت فهى مُتقاودة و متساوقة .

وفى حديث، أم مَعْبد : فجاء زوجها يَسُوق أعنُزاً ما تساوق، أى ما تتابع . والمُسَاوقة :المتابعة كأنّ بعْضها يسوق بعضا .

وساق إليها الصَّداقَ والمهرَ سياقاً و أساقه، وإن كان دراهم أو دنانير، لأن أصل الصداق عند العرب الإبلُ، وهى التى تُساقُ، فاستعمل ذلك فى الدراهم و الدينار وغيرهما ... و السِّياق : المهر .

وساق بنفسه سياقاً : نَزَعَ بها عند الموت .تقول رأيت فلاناً يَسُوق سُوقاً أى :يَنْزع نَزْعاً عند الموت[1] ".

و قال الزمخشرى :" و من المجاز : هو يسوق الحديث أحسن سياق . و إليك سياق الحديث، و هذا الكلام مساقه إلى كذا، و جئتك بالحديث على سوقه أى سَرْدِه ."[2].

و يقصد بالسرد التوالي و التتابع كما فى قوله :"سرد الحديث و القراءة جاء بهما على ولاء[3] ".

فالسياق من معانيه المعجمية يعنى:الغرض الذي سيق الكلام له.

وقد ذكر بعض علمائنا السياق ووضعوا له تعريفا منهم: السجلماسي الذي عرفه بقوله :"هو ربط القول بغرض مقصود علي القصد الأول "[4] وجاء ذلك عندما حديثه عن الإيجاز بالحذف، المسمي عند البلاغيين (الاكتفاء) وهو: حذف أحد المرتبطين بوجه اكتفاء بالثاني والذي يدل علي المحذوف دلالة مركبة من دلالتين وسياق "أما الدلالتان ؛ فالدلالة المقتضية بالجملة أن هاهنا مضافا قد انجز في الذهن مع المضاف إليه الملفوظ به، وهما المرتبطان في القول المنطبق عليهما حد المضافين من جهة النحو الذي أخذا

---

1 لسان العرب لابن منظور: سوق. ط دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي . بيروت . الأولى ١٩٩٩م .

2 أساس البلاغة لجار الله محمود بن الزمخشري:٣١٤ . ط.دار صادر بيروت ١٣٩٩هـ.

3 أساس البلاغة :٣٩٢.

4 المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ١٨٨ .

مرتبطين منه، ودلالة حرف الشرطية المقتضي الربط الاتصالي أو غير ذلك من القرائن اللفظية والأدلة المقالية، وأما السياق فالدلالة القاطعة علي المحذوف الناصّة عليه المبرزة لتقديره الشخصي أو لتقديره الواحد بالنوع منزلة الشخصي من القوة إلي الفعل"[1]

ثم مثل بقوله تعالى:"و لو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى"[2] كأنه قال : لكان هذا القرآن[3].

وقد ذكر عبد القاهر الجرجاني أهمية مراعاة المتكلم لملابسات ما يذكره وأن ذلك دلالة علي فهمة ومراعاته لحال الناس حين قال : "إن معنى ذلك أنه قد يكون من أغراض الناس فى فعل ما أن يقع بإنسان بعينه، ولا يبالون من أوقعه، كمثل ما يعلم من حالهم فى حال الخارجي يخرج فيعيث ويفسد، ويكثر به الأذى، أنهم يريدون قتله، ولا يبالون من كان القتل منه، و لا يعنيهم منه شئ، فإذا قتل وأراد مريد الإخبار بذلك فإنه يقدم ذكر الخارجي فيقول قتل الخارجي زيدً، و لا يقول :"قتل زيدٌ الخارجي"؛ لأنه يعلم أن ليس للناس فى أن يعلموا أن القاتل له "زيد" جدوى وفائدة فيعنيهم ذكره ويهمهم ويتصل بمسرتهم ويعلم من حالهم أن الذي هم متوقعون له ومتطلعون إليه متي يكون وقوع القتل بالخارجي..."[4].

وقد تحدث ابن الأنبارى عن مفهوم السياق دون أن يسميه صراحة فقال :"إن كلام العرب يصحح بعضه بعضاً، و يرتبط أوله بآخره، ولا يعرف معنى الخطاب منه إلا باستيفائه، و استكمال جميع حروفه، فجاز وقوع اللفظ على المعنيين المتضادين ؛ لأنها يتقدمها ويأتي بعدها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر، ولا يراد بها في حال المتكلم والإخبار إلا معنى واحداً "[5]، وقد عمم حكمه في اللفظ ذي المعنى المتعدد أيّا كانت

---

1 المصدر نفسه ١٨٩ .

2 سورة الرعد ٣١ .

3 المنزع البديع : ١٨٩.

4 دلائل الإعجاز.عبد القاهر الجرجاني:١٠٧،١٠٨.تح: محمود محمد شاكر. ط.الهيئة المصرية العامة للكتاب .مكتبة الأسرة٢٠٠٠م.

5 الأضداد:٢.

جهة تعدده، قال :" و مجرى حروف الأضداد، مجرى الحروف التي تقع على المعاني المختلفة، وإن لم تكن متضادة، فلا يعرف المعنى المقصود منها إلا بما يتقدم الحرف، و يتأخر بعده مما يوضح تأويله"[1].

وكذلك ابن جنى يؤكد أن دلالة الموقف أحيانا تظهر حالة صاحبها وتبين شأنه مما يجعلها تنوب مناب اللفظ وربما تصبح أقوي منه وهذا يبينه السياق يقول:"من ذلك أن ترى رجلاً قد سدد سهماً نحو الغرض، ثم أرسله، فتسمع صوتاً فتقول :القرطاسَ والله، أي أصاب القرطاس، (فأصاب) الآن فى حكم الملفوظ به البتة، وإن لم يوجد فى اللفظ، غير أن دلالة الحال نابت مناب اللفظ [2]".فإذا كان أمر الحال بهذه الدرجة عند ابن جنى، فقد ذكر ما هو أعظم من ذلك حيث قال حول بيت أبى خُراش الهُذلى[3]:

رَفُونى وقالوا :يا خُوَيلدُ لا تُرَعْ فقلت–وأنكرتُ الوجوهَ– هُمُ هُمُ

"أفلا ترى إلى اعتباره بمشاهدة الوجوه وجعلها دليلاً على ما فى النفوس [4]".

وهيئة المتكلم واحدة من مكونات السياق الموقف وقد ذكر ابن جنى وهو يصف حال المتكلم عند حذف الصفة ودلالة الحال عليها :"و قد حذفت الصفة ودلت الحال عليها . وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم :سير عليه ليل، وهم يريدون :ليل طويل، وكأن هذا إنما حذفت الصفة فيه لما دل من الحال على موضعها، وذلك أنك تُحسُّ فى كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله :طويل، أو نحو ذلك ، وأنت تحسُّ هذا من نفسك إذا تأملته .وذلك أن تكون فى مدح إنسان و الثناء عليه فتقول :كان والله رجلاً! فتزيد فى قوة اللفظ (والله) هذه الكلمة، ولتمكن فى تمطيط اللام وإطالة الصوت بها، وعليها، أي رجلاً فاضلاً أو شجاعاً أو كريماً، أو نحو ذلك .وكذلك تقول : سألناه فوجدناه

---

1 الأضداد ٣،٤، والحرف : الكلمة، وهو مصطلح يشيع استخدامه عند القراء أكثر من اللغويين .

2 الخصائص .لأبي الفتح بن جني:/١/٢٨٥.تح:محمد علي النجار. ط.بيروت.(الأولي)

3 الخصائص: ١/٢٤٨.

4 المصدر نفسه :١/٢٤٨.

إنسانا ! ومكن الصوت بإنسان وتفخمه، فتستغني عن وصفه بذلك بقولك:إنساناً سمحاً أو جواداً أو نحو ذلك . وكذلك إذا ذممته ووصفته بالضيق قلت : سألناه وكان إنساناً! وتزوي وجهك وتقطبه، فيغنى ذلك عن قولك :إنساناً لئيداً أو كزاً أو مبخلاً أو نحو ذلك [1]".وفي هذا النص ما فيه من إشارات على قدر من الأهمية الكاشفة عن مصاحبات اللفظ من الأحوال الصوتية :"التطويح و التطريح والتفخيم والتعظيم والتمطيط، والإطالة ..مما فيه دلالة على معنى اللفظ .

أو الأهمية الكاشفة عن هيئة المتكلم من زوىً أو تقطيب، ويصح عكسها من تهليل وبشر، مما يكشف عن المراد من اللفظ وبخاصة فى غير الدلالات

الصريحة :فقولك :"كان والله إنساناً" لا معنى له، إذ لا يخرج عن كونه كذلك، فلم يبق إلا أن يكون متصفاً بصفة حسنة أو قبيحة، ولا يكشفها حين يقف النص على ذلك إلا مصاحباته الصوتية (التنغيم)، أو هيئة المتكلم من تعبيرات وجهه وحركة يديه.ويمكن إيجاز مفهوم السياق في التراث العربي في ثلاث[2] :

١ – أن السياق هو الغرض – وقد ذكر ابن فارس أن المعني هو القصد أي مقصود المتكلم من إيراد الكلام، وهو واحد من المفاهيم التي عبر بلفظ السياق عنها وكان استعمالها بهذا منضبطا عند الأصوليين .

٢ – أن السياق هو الظروف والمواقف والأحداث التي ورد فيها النص أو نزل أو قيل بشأنها واوضح ما عبر به عن هذا المفهوم لفظا الحال والمقام .

---

1 الخصائص :١/٣٧٢،٣٧٣، و انظر :الكتاب : ١/٢٢٠.

2 دلالة السياق.د.ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي.ص:٥٠،٥١ .ط.جامعة أم القري مكة المكرمة أولي ١٤٢٤هـ.

3 المقاييس ٤/١٤٨،١٤٦ ويبدو هناك ترادف في الاستعمال بين الكلمات (الغرض، المعنى، القصد، المراد) يقول ابن منظور :ومعني كل كلام ومعناته ومعنيته: مقصده والاسم : العناء يقال : عرفت ذلك في معنى كلامه ومعناه كلامه وفي معني كلامه " اللسان :عني

٣ – أن السياق ما يعرف الآن بالسياق اللغوي الذي يمثله الكلام في موضع النظر أو التحليل، و يشمل ما يسبق أو يلحق به من كلام يمكن أن يضئ دلالة القدر منه (موضع التحليل) أو يجعل منها وجهاً استدلالياً.

أما **السياق في هذا البحث** فأعني به: الحالة التي كان عليها المبدع عند صوغه لتجربته الأدبية، وما لابس هذه الحالة من ملابسات خارجية رعاها المبدع، وظهرت في أدبه، أو هو المقصد الذي صاغ لأجله هذه التجربة، مما ينبغي أن يعرفه المتلقي ؛ حتى يفهم التجربة فهما صوابا.فالسياق هو الجو العام الذي وردت فيه النصوص وما يكتنفها من قرائن ودلائل، فهناك مثلا الكثير من الكلمات الموضوعة لأكثر من معنى، ولا يمكن استكشاف المعنى المراد إلا بملاحظة المورد الذي وردت فيه، الذي على أساسه نستطيع تقديم أحد المدلولات على ما سواه حتى و لم يكن هو المعنى الأكثر تداولاً .

المبحث الثاني : السياق و القرآن الكريم[1]

للسياق أهمية كبرى في تحديد دلالة واستكشاف مراد المتكلم، ولا بد في سبيل الوصول إلى تلك الدلالات من وضع الكلمة، أو الجملة، في سياقها الذي وردت فيه ولابد من معرفة ذلك السياق بالنسبة للمتلقي لصحة فهم النص والسياق القرآني له دور كبير في تحديد دلالات الآيات وألفاظ تلك الآيات، وقد جعل الشاطبي – رحمه الله – مراعاة السياق مظهراً من مظاهر الاعتدال في التفسير المفضي إلى الفهم السليم، حين قال: "فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف، فإن فرق النظر في أجزائه؛ فلا يتوصل به إلى مراده، ولا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض"[2] ولما كان تفسير النصوص – وما زال – الشغل الشاغل للعلماء، كلٌّ في مجال اختصاصه؛ لأن فهم المراد من النص الهدف الأولى، والغاية الكبرى؛ لما له من الآثار والثمار، فلا غرو بهذا الاعتبار أن تتجه الأنظار إلى تفسير النصوص منذ وجدت. صاحب تفسير النصوص تباين في الوسائل والغايات، فمن طائفة حرصت على الكشف عن المراد من النص في ضوء ما أتيح لها من معالم وقرائن معينة على فهمه، وطائفة أخرى أهمتها أغراضها؛ فغدت على النص تفسره كيفما ترى أو يحلو لها، بعيداً عن الضوابط والقرائن، جاهلة بها، أو متجاهلة لها؛ فكانت الجناية على النص.

وهنا ننبه علي أهمية الانضباط بالقواعد التي وضعها العلماء للتفسير ولا ننجر وراء السياق وحده لأن: "قواعد العموم مقدمة على قواعد السياق

---

1 إن الحديث عن السياق في القران كبير يحتاج إلي مجلدات أو علي الأقل أضعافا مضاعفة لأوراق هذا البحث وقد وضعت كتب ورسائل علمية عن السياق في القران الكريم لكني اكتفي بأوراق موجزة في هذا البحث لأشرف بالنظر إلي كتاب الله وتفاسيره ومن ناحية أخري لأوصل لهذا البحث ومن ناحية ثالثة تتضح لنا قيمة السياق بالنسبة لفهم النصوص لاسيما للمتلقي.

2 الموافقات في أصول الشريعة. أبو إسحاق الشاطبي:١/١٥٦، ٣/٨٥٥ تحقيق عبد المنعم إبراهيم.مكتبة الباز مكة المكرمة، ط١. ١٤١٨هـ.

وغيرها؛ لأن قواعد العموم أقوى من قواعد السياق[1]". للقاعدة المشهورة بين المفسرين، وهي: (تفسير جمهور السلف، مقدم على كل تفسير شاذ[2]) فإن كان يصلح في الشعر علي اطلاقة إلا انه لابد أن يضبط في كتاب الله والحديث النبوي، بالقواعد التي قررها العلماء في ذلك، وقد صرح الطبري "أن العموم مقدم على السياق، وهو ما عمل به في مواطن كثيرة من تفسيره[3].

وقد حرص أهل الشأن علي الحيلولة دون العبث بالنصوص؛ فعمدوا بعد استقراءٍ وجمع إلى وضع مجموعة من القواعد والمعالم التي تعين على التفسير السليم للنصوص، ولتكون بمثابة الميزان الذي يعرف به التفسير المقبول من غيره.من مثل الالتزام بالقواعد اللغوية والمعاني التي وضعتها اللغة للألفاظ كما هو موضوع في المعاجم والقواميس وكتب اللغة، فلا يأتي رجل – كائنا من كان– بلفظ ويدعي له معني أو معانيا لا تؤيدها اللغة ولا تقول بها ولا يعرفها علماؤنا ثم يسلم له ذلك .ولقد آتت هذه القواعد ثمارها، وبرزت آثارها، فصار لها حضور مشهور لدى مفسري النصوص، بخاصة مفسرو القرآن الكريم، الذين عنوا بها منذ وقت مبكر؛ تفصيلاً وتأصيلاً وتطبيقاً، فحازوا فضل السبق في ذلك كله.و كان السياق من أبرز هذه القواعد والقرائن، وقد وقف المفسرون على دوره المتميز، فأنزلوه منزلته اللائقة به في الجملة.ف"إن لكل كلمة في القرآن معنى في ضوء سياقها، قد لا يصح هذا المعنى لسياق آخر؛[4] لأن مراعاة مساق الكلام ومنحى القول مهم، وإن كان المعنى الآخر صحيحاً؛ لهذا عد صاحب (المنار) السياق أفضل

---

1 قواعد الترجيح عند المفسرين . ٦٦/١ .

2 قواعد الترجيح عند المفسرين. حسين بن على الحربي: ٢٨٨/١.ط. دار القاسم الرياض، أولي ١٤١٧هـ.

3 جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٤٤/٢٨.

4 أحكام القرآن.أبو بكر ابن العربي : ٣/ ١٣٨ تحقيق محمد على البجاوي. بيروت: دار المعرفة، د.ت.

قرينة تكشف عن حقيقة معنى اللفظ١ ومن مراعاة السياق في كتاب الله الكريم ما يتضح لنا في الفرق بين حادثتين متطابقتين في كتاب الله وهما إحياء الموتى علي يدي نبيين كريمين هما إبراهيم الخليل وعيسى عليهما السلام ولكن هناك فرق في ذكر الموقفين وفي الصياغة القرآنية للحدثين فعند الحديث عن الموقف مع إبراهيم عليه السلام قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)٢

---

1 تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) :٢٢/١ محمد رشيد رضا. القاهرة: دار المنار، د.ت.

2 سورة البقرة .أية: ٢٦٠ وقد ذكر البيضاوي رحمه الله كلاما نذكره– بتصرف– تماما للفائدة:–" وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى " إنما سأل ذلك ليصير علمه عياناً، وقيل لما قال نمرود أنا أحيي وأميت قال له : إن إحياء الله تعالى برد الروح إلى بدنها، فقال ليطمئن قلبه على الجواب إن سئل عنه مرة أخرى . " قال أولم تؤمن " بأني قادر على الإحياء بإعادة التركيب والحياة، قال له ذلك وقد علم أنه أغرق الناس في الإيمان ليجيب بما أجاب به فيعلم السامعون غرضه . " قال بلى آمنت ولكن سألت ذلك لأزيد بصيرة وسكون قلب العيان إلى الوحي أو الاستدلال ." قال فخذ أربعة من الطير " قيل طاووساً وديكاً وغراباً وحمامة، ومنهم من ذكر النسر بدل الحمامة وفيه إيماء إلى أن إحياء النفس بالحياة الأبدية إنما يتأتى بإماتة حب الشهوات والزخارف الذي هو صفة الطاووس، والصولة المشهورة بها الديك وخسة النفس وبعد الأمل المتصف بهما الغراب، والترفع والمسارعة إلى الهوى الموسوم بهما الحمام . وإنما خص الطير لأنه أقرب إلى الإنسان وأجمع لخواص الحيوان ... " فصرهن إليك " فأملهن واضممهن إليك لتتأملها وتعرف شياتها لئلا تلتبس عليك بعد الإحياء ... أي ثم جزئهن وفرق أجزاءهن على الجبال التي بحضرتك ...ثم قل لهن تعالين بإذن الله تعالى يأتينك ساعيات مسرعات طيراناً أو مشياً . روي أنه أمر بأن يذبحها وينتف ريشها ويقطعها فيمسك رؤوسها، ويخلط سائر أجزائها ويوزعها على الجبال، ثم

وعند الحديث عن الموقف مع عيسي عليه السلام قال تعالى: (وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)[1]

وقال تعالى ذاكرا الحدث من زاوية تصويرية أخرى: (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ)[2]

ويلاحظ في السياق عدم ذكر (بإذن الله) أو (بإذني) عند الحديث عن الإحياء مع خليل الله إبراهيم عليه السلام بينما تكرر ذلك (مرتين) في سياق الحديث علي لسان عيسى كما ورد في سورة آل عمران و(أربع مرات) كما ورد علي لسان رب العزة تبارك وتعالي في معرض بيان مننه علي نبيه عيسي في سورة المائدة وهنا لنا أن نتسائل عن السر في ذكر الإذن مع النبي عيسي بينما لم يذكر مع النبي إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ؟!!ولنذهب لعلمائنا المفسرين رحمهم الله فهم ألصق الناس بكتاب الله وأعرف الناس بمراده بعد – النبي والصحابة والتابعين–

يناديهن، ففعل ذلك إشارة إلى أن من أراد إحياء نفسه بالحياة الأبدية، فعليه أن يقبل على القوى البدنية فيقتلها ويمزج بعضها ببعض حتى تنكسر سورتها، فيطاوعنه مسرعات متى دعاهن بدعاية العقل أو الشرع . وكفى لك شاهداً على فضل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ويمن الضراعة في الدعاء وحسن الأدب في السؤال، إنه تعالى أراه ما أراد أن يريه في الحال على أيسر الوجوه، وأراه عزيراً بعد أن أماته مائة عام . " واعلم أن الله عزيز " لا يعجز عما يريده . " حكيم " ذو حكمة بالغة في كل ما يفعله ويذره .

1 سورة: آل عمران آية: ٤٩

2 سورة: المائدة آية: ١١٠

يقول الشوكاني[1] في تفسيره للآية في سورة المائدة : "بإذني"، وتكرير بإذني في المواضع الأربعة للاعتناء بأن ذلك كله من جهة الله ليس لعيسى عليه السلام فيه فعل إلا مجرد امتثاله لأمر الله سبحانه.وكان الشوكاني رحمه الله قد قدم قبل هذا الكلام كلاما طيبا في تفسيره لهذه الآية حيث قال : قوله:– "إذ قال الله يا عيسى ابن مريم" إذ بدل من يوم يجمع، وهو تخصيص بعد التعميم وتخصيص عيسى عليه السلام من بين الرسل لاختلاف طائفتي اليهود والنصارى فيه إفراطاً وتفريطاً، هذه تجعله إلهاً، وهذه تجعله كاذباً، وقيل هو منصوب بتقدير اذكر. قوله: "اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك" ذكره سبحانه نعمته عليه وعلى أمه مع كونه ذاكراً لها عالماً بتفضل الله سبحانه بها لقصد تعريف الأمم بما خصهما الله به من الكرامة وميزهما به من علو المقام، أو لتأكيد الحجة وتبكيت الجاحد بأن منزلتهما عند الله هذه المنزلة وتوبيخ من اتخذهما إلهين ببيان أن ذلك الإنعام عليهما كله من عند الله سبحانه، وأنهما عبدان من جملة عباده منعم عليهما بنعم الله سبحانه ليس لهما من الأمر شيء.

وجاء في تفسير الجلالين[2] عند تفسير الآية في سورة آل عمران: (و) نجعله (رسولاً إلى بني إسرائيل) في الصبا أو بعد البلوغ فنفخ جبريل في جيب درعها فحملت، وكان من أمرها ما ذكر في سورة مريم فلما بعثه الله إلى بني إسرائيل قال لهم: إني رسول الله إليكم (أني) أي بأني (قد جئتكم بآية) علامة على صدقي (من ربكم) هي (أني) وفي قراءة بالكسر استئنافا (أخلق) أصور (لكم من الطين كهيئة الطير) فالكاف اسم مفعول (فأنفخ فيه) الضمير للكاف (فيكون طيراً) وفي قراءة طائر (بإذن الله) بإرادته فخلق لهم الخفاش لأنه أكمل الطير خلقا فكان يطير وهم ينظرونه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتا ليتميز فعل المخلوق من فعل الخالق وهو الله تعالى وليعلم أن الكمال لله (وأبرئ) أشفي (الأكمه) الذي ولد أعمى (والأبرص) وخُصا بالذكر

---

1 فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير. لمحمد ابن علي الشوكاني :١٠١/٢ .(د.ط)(د.ت)

2 تفسير القرآن العظيم .لجلال الدين محمد بن أحمد المحلى، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطي ص:١٠٠ ط.الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية ١٩٧٧

لأنهما داءا إعياء وكان بعثه في زمن الطب فأبرأ في يوم خمسين ألفا بالدعاء بشرط الإيمان (وأحيي الموتى بإذن الله) كرره لنفي توهم الألوهية فيه فأحيا عازر صديقا له وابن العجوز وابنة العاشر فعاشوا وولد لهم، وسام بن نوح ومات في الحال (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون) تخبئون (في بيوتكم) مما لم أعاينه فكان يخبر الشخص بما أكل وبما يأكل بعد (إن في ذلك) المذكور (لآية لكم إن كنتم مؤمنين)

وذكر البيضاوي[1] – رحمه الله – تفسير الآية في سورة آل عمران قائلا:" ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم " منصوب بمضمر على إرادة القول تقديره: ويقول أرسلت رسولاً بأني قد جئتكم، أو بالعطف على الأحوال المتقدمة مضمناً معنى النطق فكأنه قال: وناطقاً بأني قد جئتكم، وتخصيص بني إسرائيل لخصوص بعثته إليهم أو للرد على من زعم أنه مبعوث إلى غيرهم. " أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير " نصب بدل من أني قد جئتكم، أو جر بدل من آية، أو رفع على هي أني أخلق لكم والمعنى: أقدر لكم وأصور الأشياء مثل صورة الطير، وقرأ نافع " إني " بالكسر "فأنفخ فيه" الضمير للكاف أي في ذلك الشيء المماثل. "فيكون طيراً بإذن الله" فيصير حياً طياراً بأمر الله، نبه به على أن إحياءه من الله تعالى لا منه. وقرأ نافع هنا وفي المائدة " طائر " بالألف والهمزة. " وأبرئ الأكمه والأبرص " الأكمة الذي ولد أعمى أو الممسوح العين. روي: أن ربما كان يجتمع عليه ألوف من المرضى من أطاق منهم أتاه ومن لم يطق أتاه عيسى عليه الصلاة والسلام وما يداوي إلا بالدعاء. "وأحيي الموتى بإذن الله" كرر بإذن الله دفعاً لتوهم الألوهية، فإن الإحياء ليس من جنس الأفعال البشرية. "وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم" بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكون فيها. "إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين" موفقين للإيمان فإن غيرهم لا ينتفع بالمعجزات، أو مصدقين للحق غير معاندين.

وذكر الشوكاني في تفسيره للآية في سورة آل عمران كلاما جيدا، لكنه يبدو فيه كنحوي، يعرب الآيات، ويبين مواقع كل كلمة من أختها، والعامل

---

1 أنوار التنزيل وأسرار التأويل(المعروف بتفسير البيضاوي) . لنصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ص:٧٥ ط دار الجيل

فيها، حتى وصل ....: وقوله "بإذن الله" فيه دليل على أنه لولا الإذن من الله عز وجل لم يقدر على ذلك، وأن خلق ذلك كان بفعل الله سبحانه أجراه على يد عيسى عليه السلام، قيل كانت تسوية الطين والنفخ من عيسى، والخلق من الله عز وجل[1].

فإجماع كلمة المفسرين، علي أن كلمة الإذن جاءت عند عيسي؛ لتؤكد أن الفعل من الله تعالي وحده، وان عيسي رزق ذلك ؛لأنه يسير في طاعة الله، مؤديا أمانة الرسالة، وقد تحدث الشوكاني عن إفراط اليهود والنصارى في عيسي، ولعل هذا هو الذي جعل العليم الخبير يكرر (بإذني) مرات، ليتعلم الناس أن عيسي لا يملك من ذلك إلا ما ملكه الله له، ولعلم الله أن إسراف قوم عيسي فيه، حتى رفعوه إلي الإلوهية، بخلاف إبراهيم عليه السلام، فان قومه لن يغالوا فيه، ولن يأخذوا ما صدر منه من إحياء الطير إلا علي ما يحتمل ذلك من نبوته، وأنها معجزة أيد بها من الله، تثبيتا له، وللمؤمنين معه، وإرغاما لخصمه ومعانده، وهذا الاختلاف في ذكر حدث واحد، جاء من مراعاة السياق عند الصياغة .

بل مراعاة السياق هي التي جعلت العبارات تختلف من نبي لآخر عند الحديث عن معاصي أممهم؛ فقد ذكر نبي الله إبراهيم ذلك فقال كما بين تعالى علي لسانه: (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[2] فقد استنشد الله تعالي، وذكره باسمية الذين يناسبان ما يريد من العفو والرحمة والمغفرة لمن عصاه، وهو في هذا يري انه يطلب الأولي والأحسن له عند ربه سبحانه والأكمل، لقومه أما ما طلبه عيسي عليه السلام في نفس الحالة فقال كما ذكر تعالى علي لسانه: (إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[3] وكان الأولي في مثل هذا الكلام أن يقول مثلا وإن تغفر لهم فانك أنت الغفور الرحيم لكنه عدل عن ذلك إلي قوله العزيز الحكيم لأنه راعي الأولي والأحسن له عند الله تعالي لان عيسي يعلم أن قومه غلو فيه وأسرفوا فبين

---

1 فتح القدير ١/١٠٠.

2 سورة: إبراهيم: ٣٦

3سورة: المائدة: ١١٨

أمام الله تعالي انه لا يرضي بذلك وان عبادة الله وجلاله في قلبه اكبر من انتمائه لقومه وانتسابه لهم وهذا من مراعاته عليه السلام للأحداث وسياقاتها.

وللسياق أثر بارز في ترجيح المحتملات، وبيان المجملات، وفي عود الضمير والقراءات، وفي تنقيح التفسير من الدخيل والإسرائيليات، ودفع ما يتوهم أنه تعارض بين الآيات...وقد كان لمفسري القرآن فضل السبق في الكشف عن دور السياق مما يظن أنه من نتاج الدراسات اللسانية الحديثة، ومن مبتكرات مدارس تحليل الخطاب.فالسياق القرآني – كما ذكرنا – له دور كبير في تحديد دلالات الآيات وألفاظ تلك الآيات، فمثلاً يستخدم القرآن الكريم صيغة الأمر ويقصد بها معناها الظاهر كما في قوله تعالى: "وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة" أي هناك أمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولكن هذه الصيغة نفسها قد يقصد بها الإباحة كما في قوله تعالى: "وإذا حللتم فاصطادوا" لورودها بعد حظر الصيد حال الإحرام "لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم" وقد يقصد بها التهديد كما في قوله تعالى :"فاعبدوا ما شئتم من دونه" أو التعجيز "فأتوا بسورة من مثله" وهكذا، فالمحدد للمراد ومدلولات الآيات مع كون الصيغة واحدة هو السياق أي ملاحظة الآيات الأخرى المقترنة بها. إن لكلمة "أمر" في القرآن الكريم ستة عشر معنى[1]، ولكلمة "الرحمة" أربعة عشر معنى[2]، ولكلمة "فتن" أحد عشر معنى[3]، أدت كل كلمة منها المعنى المراد الذي يفرضه السياق.

وكمثال آخر على تحديد مدلول كلمة معينة في النص القرآني؛ استناداً إلى السياق ما ورد عن علي رضي الله عنه في تفسير معنى كلمة "الأب" بما تأكل الأنعام في قوله تعالى: "وفاكهة وأبّا، متاعاً لكم ولأنعامكم" حيث قال: "إن معنى اللفظ في الآية ذاتها... فالفاكهة لكم والأبّ لأنعامكم . وفي حديث آخر أن عمر مرّ يوماً بشاب من فتيان الأنصار وهو ظمآن، فاستسقاه فخلط

---

1 إصلاح الأشباه والنظائر. الحسين بن محمد الدامغاني. ص ٣٨ تحقيق عبد العزيز سيد الأهل. ط٢. بيروت: دار العلم للملاين، ١٩٧٧م.

2 نفس المصدر ص ٣٤٧

3 نفس المصدر ص ٣٤٧

له الفتى الماء بعسل وقدمه إليه فلم يشربه وقال: "إن اللّـه تعالى يقول (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا) فقال له الفتى:"إنها ليست لك ولا لأحد من أهل القبلة أترى ما قبلها (ويوم يُعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) فقال عمر كل الناس أفقه من عمر[1]. فنرى كيف أن الأنصاري لم يدرك هذا المعنى إلا من خلال السياق الذي وردت فيه الآية. بل يمكن من خلال السياق استكشاف خطأ من يتلو القرآن في حال خطئه، ومثاله أن أحد الأعراب سمع رجلاً يتلو آية هكذا "والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا من اللّـه واللّـه غفور رحيم" فقال الأعرابي أخطأت، قال: وكيف؟ قال: إن المغفرة والرحمة لا تناسبان مع قطع يد السارق. فتذكّر الرجل الآية وقال"واللّه عزيز حكيم" فقال الأعرابي نعم، بعزّته أخذها، وبحكمته قطعها[2]...ومما يؤسف له أن كثيراً من الناس يقتطعون الآية أو جزء الآية من سياقها ليستفيدوا ما يشاءون من معاني ومضامين تنسجم مع ما يرغبون كما في قوله تعالى: "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة" حيث اتخذها البعض مبرراً للتهرب من المسؤوليات الملقاة على عواتقهم وفراراً من أدنى تضحيات يقدمونها في سبيل هدف أسمى مع أن الآية جاءت في سياق آيات تحث المؤمنين على الإنفاق في سبيل اللّه تعالى كجهاد مالي يضاف إلى الجهاد بالأبدان والأرواح والأنفس، من خلال تجهيز الغزاة، وأن عدم الإنفاق والبخل يؤدي إلى إضعاف جبهة المسلمين وبالتالي هلاكهم وإبادتهم قال تعال: "... وأنفقوا في سبيل اللّه ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن اللّه يحب المحسنين" فالتهلكة يقصد بها هنا ما يترتب على عدم الإنفاق[3].

وقد تحدث عن السياق في القرآن الكريم كثير من العلماء واستوفوه في كتب كثيرة لعل أهمها الكتب التي تناولت أسباب النزول لآيات وسور القرآن

---

[1] شرح نهج البلاغة .لابن ابي الحديد :ص:٦١.ط.دار إحياء التراث العربي (د.ت)

2 السياق القرآني ودوره في تحديد مدلول الآيات والألفاظ .سمير رحّال .(د.ط،ت)

3 نفس المصدر

الكريم وأيضا:علم الناسخ والمنسوخ[1] من علوم التفسير المهمة. وله صلة بالسياق وتلك الصلة من أهم ما يميز وقوع النسخ في الآيات من عدمه، بل هو من أعظم ما يقرر مقصود الآيات حتى مع نسخها، فإن بقاء الآيات بعد نسخها لابد وأن يكون لغرض مقصود، وتكون دالة على حكم معين بعد النسخ .والأمثلة:علي ذلك كثيرة جدا منها :الذي يدلل أن السياق هو الذي يقرر وجود النسخ في الآية كما في قوله تعالى: " كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ[2]". الآية صريحة في فرضية الوصية؛ لأن قوله تعالى: "كُتِبَ عَلَيْكُمْ" صريح في ذلك، وقد اختلف المفسرون في بقاء حكم الآية أو نسخه، على أقوال :القول الأول: أن الحكم بها كان واجباً، عمل به في وقت، ثم نسخ منها بآية المواريث الوصية للورثة دون من لا يرث من الوالدين والأقربين. القول الثاني: أنها منسوخة بآيات المواريث، فلا وصية واجبة لأحد على أحد، ولكن يبقى وجوب الوصية عاما لمن عليه حقوق أو ديون، والندب والاستحباب فيها لغير الورثة، إعمالاً للآية والأحاديث ..القول الثالث: أنها محكمة، وتكون الوصية للوالدين والأقربين واجبة، ويجمع للوارث بين الوصية والميراث بحكم الآيتين .القول الرابع: أنها محكمة، ولكنها وصية بالميراث المقدر، والمعنى: كتب عليكم ما أوصى به الله من توريث الوالدين والأقربين[3] .الراجح الذي يؤيده السياق القول الثاني، وهو أنها منسوخة بآيات المواريث، ولكن يبقى وجوب الوصية عاما لمن عليه حقوق أو ديون، والندب والاستحباب فيها عاماً لغير الورثة، إعمالاً للآية والأحاديث .ودلالة السياق على ذلك ظاهرة من وجوه :أولاً: أن سياق الآية في بيان الحقوق الواجبة قبل الموت، وقد بينت آيات النساء حقوق الوراثة، فتكون الآية منسوخة في حق الوراثة، ويبقى الوجوب في الحقوق الواجبة غير الميراث، ويبقى الوصية لغير الورثة وهي بين الوجوب والاستحباب، والاستحباب

---

1 هما مصطلحان لعلماء التفسير وأهل الدراسات القرآنية معناهما :الناسخ هو الحكم الرافع للحكم، والمنسوخ هو الحكم المرتفع

2 سورة البقرة: ١٨٠

3 جامع البيان:٢/١٢٤، المحرر الوجيز:١/٢٤٨، مفاتيح الغيب:٥/٦٧.

أقرب؛ إذ لا دليل من عمل النبي والصحابة على وجوب الوصية لغير الورثة . قال ابن عطية: "قال ابن عمر وابن عباس وابن زيد: الآية كلها منسوخة وبقيت الوصية ندباً"[1] .وقال شيخ الإسلام: "والوصية للوالدين و الأقربين منسوخة بآية المواريث كما اتفق على ذلك السلف"[2] . ثانياً: أن الآية مجملة في تعيين حق الوالدين والأقربين، وآيات المواريث في النساء مفصلة، فتكون آيات المواريث تفسيراً لهذه الآية .ثالثاً: أن قوله تعالى: { بِالْمَعْرُوفِ} فيه دلالة على النسخ من جهة أنه جعل فرض التقدير إلى الموصي، ولما أنه قد يقع من الموصي إجحاف أو ميل أو قصد مضارة كما تدل عليه الآية التي بعدها، تولى الله تعالى بيان ذلك الحق ببيان مقادير الميراث على وجه تيقن به أنه الصواب، وأن فيه الحكمة البالغة، والمراعاة الكاملة لأولى الناس فيها، وحدها بمقادير لا يمكن تغييرها مراعاة للضعفاء الذين كان من عادة أهل الجاهلية تركهم أو الإجحاف في حقهم. فتحول الحكم من جهة الإيصاء الذي هو بيد الموصي إلى الميراث الذي قدره الله تعالى عدلاً ورحمة .قال الرازي" :لما نزلت آية المواريث.. بيّن أن ما تقدم كان واصلاً إليهم بعطية الموصي، فأما الآن فالله تعالى قدّر لكل ذي حق حقه، وأن عطية الله أولى من عطية الموصي"[3] .فعليه يكون حكم الآية في الفرضية منقولا للمواريث، ويبقى حكم فرضيتها ووجوبها في إنفاذها وتقديمها مطلقاً. كما تدل عليه الآيات بعدها ويدل عليه قوله تعالى: في آيات المواريث " مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ"[4] وكل ذلك دال بمفهومه على استحبابها لغير الورثة . وأما كون الوصية ندباً فيما سوى ذلك فظاهر من وجوه :أولاً: أن بقاء التلاوة ونسخ الحكم دال على رفع الفرض وبقاء الندب؛ إذ لا بد من فائدة من بقاء التلاوة .ثانياً: يدل عليه الوصية بذوي القربى وتقديمهم في آية البر وغيرها من الآيات .ثالثاً: أن القول بوجوب الوصية لغير الورثة من الأقرباء

---

1 المحرر الوجيز:١/٢٤٨.

2 مجموع الفتاوى .لتقي الدين ابن تيمية الحراني:١٧/١٩٨.ط.دار المنار ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

3 مفاتيح الغيب:٥/٦٥ .

4 سورة النساء : ١١.

رغم دلالة الآية عليه إلا أنه لم يكن من عمل النبي والصحابة، وهو خلاف قول الجمهور . قال الألوسي: "إن الوجوب صار منسوخاً في حق الكافة، وهي مستحبة في حق الذين لا يرثون، وإليه ذهب الأكثرون"[1] .

رابعاً: قوله تعالى: " حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ" فخص المتقين، ولو كانت عامة لقال المسلمين أو المؤمنين. وإن كان هذا له تخريج ظاهر[2] .

المبحث الثالث :السياق والحديث النبوي

وكذلك للسياق أهمية كبيرة للفهم الصحيح للأحاديث النبوية المطهرة، والتي يستعملها أحيانا أصحاب الأغراض الخبيثة لخدمة أغراضهم، وليلبّثوا بها في بعض المواقف، التي يشغبون فيها ويتجرؤون ويفترون على الصحابة الكرام رضي الله عنهم، كأن يهاجم جاهلهم أبا ذر الغفاري رضي الله عنه!، ثم يزعم أن النبي عليه الصلاة والسلام قد قال فيه :"إنك امرؤ فيك جاهلية"!. وكأن كلام النبي علم فيه، متأصل به؛ فينطلي ذلك على المتلقي!، الذي لا يعرف سياق الحديث، ولا ملابسات قوله صلي الله عليه وسلم، وهذه جناية كبري علي الحديث، وتحريف للقول عن مواضعه، وظلم وإجحاف للصحابي الكريم، ولنرجع إلى الحديث ثم لنري أقوال علماء الحديث فيه أخرج البخاري ومسلم بسنديهما عن المعرور بن سويد. قال: رأيت أبا ذرٍّ بالربذة وعليه برد غليظ، وعلى غلامه مثله قال: فقال القوم: يا أبا ذر، لو كنت أخذت الذي على غلامك فجعلته مع هذا فكانت حلة وكسوت غلامك ثوباً غيره، قال: فقال أبو ذر: إني كنت سابيت رجلاً وكانت أمه أعجمية فعيَّرته بأمّه، فشكاني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا أبا ذرٍّ، إنّك امرؤٌ فيك جاهلية" قال: "إنهم إخوانكم فضلكم الله عليهم، فمن لم يلائمكم فبيعوه، ولا تعذبوا خلق الله"[3].

---

1 روح المعاني:١/٦١٧ .

2 الجامع لأحكام القرآن . لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي :٢/٦٤٤. ط . دار الريان للتراث .(بتصرف)

3 أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، وفي كتاب الأدب، ومسلم في كتاب الأيمان،و البيهقي في كتاب النفقات و أبو داود كتاب الأدب رقم٥١٥٧ (واللفظ لأبي

وفي رواية البخاري زيادة أخري هي:... عن المعرور قال: لقيت أبا ذر بالربذة، وعليه حلة، وعلى غلامه حله، فسألته عن ذلك، فقال: إني سابيت رجلا فعيرته بأمه، فقال لي النبي صلى الله عليه سلم:(يا أبا ذر، أعيرته بأمه، إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم).

وقد شرح ابن حجر العسقلاني هذا الحديث وبين انه لا ينقص من حق أبي ذر بل هو من باب الإرشاد له ولغيره من المسلمين لاسيما وهم حديثوا عهد

بالاسلام وقريبوا عهد بأخلاق الجاهلية والتي لبثوا فيها من أعمارهم سنين ذكر ابن حجر[1] ..."وأما قصة أبي ذر فإنما ذكرت ليستدل بها على أن من بقيت فيه خصلة من خصال الجاهلية سوى الشرك لا يخرج عن الإيمان بها سواء كانت من الصغائر أم الكبائر وهو واضح واستدل المؤلف أيضا على أن المؤمن إذا أرتكب معصية لا يكفر، بان الله تعالى أبقى عليه اسم المؤمن فقال:"وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا" ثم قال:" إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم"، واستدل أيضا بقوله صلى الله عليه وسلم :"إذا التقي المسلمان بسيفيهما"، فسماهما مسلمين مع التوعد بالنار، والمراد هنا إذا كانت المقاتلة بغير تأويل سائغ، واستدل أيضا بقوله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر:" فيك جاهلية"أي :خصلة جاهلية مع أن منزلة أبي ذر من الإيمان في الذروة العالية وإنما وبخه بذلك على عظيم منزلته عنده تحذيرا له عن معاودة مثل ذلك لأنه وأن كان معذورا بوجه من وجوه العذر لكن وقوع ذلك من مثله يستعظم أكثر ممن هو دونه". ثم ذكر ابن حجر أن ذلك كان من باب الإرشاد والتعليم، وإعلاء حق المسلم، وبيان قيمته، فليس الكلام لأبي ذر لإنقاص قيمته، بل لغرض إظهار قيمة المسلم، يقول صاحب فتح الباري:"... ترشد إليه ويؤخذ منة المبالغة في ذم السب واللعن لما فيه

داود).ينظر:صحيح البخاري.تح:محمد علي القطب.ط.المكتبة العصرية بيروت ١٤٠٠هـ، ١٩٩١م،صحيح مسلم .ط.مطبعة الريان للتراث .١٤٠٧هـ١٩٩٢م.

1 فتح الباري .لابن حجر وهو يشرح في كتاب الإيمان

من احتقار المسلم وقد جاء الشرع بالتسوية بين المسلمين في معظم الأحكام وأن التفاضل الحقيقي بينهم إنما هو بالتقوى فلا يفيد الشريف النسب نسبه إذا لم يكن من أهل التقوى وينتفع الوضيع النسب بالتقوى كما قال تعالى:" إن أكرمكم عند الله أتقاكم"[1]. وقد فهم أبوذر رضي الله عنه هذا الدرس الذي لم يكن توبيخا ولا شتما بل درس له ولغيره من الناس كما جاء في بعض شرح للنووي علي صحيح مسلم حيث يقول:" ... قوله صلى الله عليه وسلم: فيك جاهلية أي هذا التعيير من أخلاق الجاهلية ففيك خلق من أخلاقهم. وينبغي للمسلم أن لا يكون فيه شيء من أخلاقهم، ففيه النهي عن التعيير وتنقيص الآباء والأمهات وأنه من أخلاق الجاهلية. قوله: "قلت يا رسول الله من سب الرجال سبوا أباه وأمه قال: يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية" معنى كلام أبي ذر الاعتذار عن سبه أم ذلك الإنسان،"[2]. ثم ما حدث من أبي ذر من احترامه لعبيده بعد ذلك، وإلباسهم مثله – مع انه السيد – ؛ يدل علي استيعابه للدرس جيدا، وفهمه له، وهو الذي يذكر هذا الحديث ويرويه ؛ ليدلنا علي أنه ليس نقصا من قدره، ولا حطا من شأنه،ولا ذما له، كما يزعم من يزعم ذلك ممن لا يعرفون أو يتجاهلون السياق العام للحديث .

وكذلك كان العلماء يستعينون بالسياق الحالي والملابسات المحيطة بالحديث،أو السياق المقالي وما يبدو من الألفاظ، في استخراج واستنباط الأحكام الشرعية، من ذلك ما ذكره الزركشي –رحمه الله– عندما أفرد عنواناً أسماه (دلالة السياق) بدأه بقوله :" أنكرها بعضهم، و من جهل شيئاً أنكره، و قال بعضهم إنها متفق عليها في مجارى كلام الله تعالى، و قد احتج بها أحمد –رحمه الله– على الشافعي–رحمه الله– في أن الواهب ليس له الرجوع من حديث "العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه "، حيث قال الشافعي هذا يدل على الجواز في الرجوع ؛ إذ قئ الكلب ليس محرماً عليه، فقال أحمد: ألا تراه يقول فيه :"ليس لنا مثل السوء، العائد في هبته ..."

---

1 فتح الباري .لابن حجر وهو يشرح في كتاب الأدب

2 المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. للنووي .كتاب الأيمان .

الحديث، و هذا مثل سوء فلا يكون لنا "[1]،و يظهر أن أحمد بن حنبل يستدل على الشافعي بالسياق الذي يعنى الغرض الذي سيق الكلام له، وهو ما ظهر في النص من رواية أخرى للحديث، أنه استدل بسياق النص على حرمة أن يعود الواهب في هبته .

المبحث الرابع: السياق والشعر

وللسياق أهمية كبري لفهم النص الشعري، للمتلقي العادي، وللناقد علي حد سواء، فإذا لم يعرف المتلقي الملابسات التي أحاطت بالنص، والسياق الذي قيل فيه، فسر النص علي غير وجهه، وربما أدي ذلك إلي جناية في حق النص، وصاحبه، وكمثال علي ذلك : معلقة عمرو بن كلثوم[2] والتي مطلعها:(الوافر)

أَلاَ هُبّي بِصَحْنِكِ، فَاصبَحينا، ... وَلاَ تُبقي خُمُورَ الأَندَرينا[3]

---

1 البحر المحيط فى أصول الفقه :٥٢/٦ . و بعد هذا الكلام سقط، إذ فيه كلام مشتمل على ضمائر لا مراجع لها مما جعل الفائدة منه محدودة . وحديث العائد فى هبته .. إلخ " فى صحيح البخاري، كتاب الهبة، باب لا يحل لأحد أن يرجع فى هبته و صدقته، حديث رقم ٢٦٢٢، ج٢٣٤/٥،٢٣٥، و فى صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الهبات، باب كراهة شراء الإنسان ما تصدق به ممن تصدق عليه ج٦٢/١١ و ما بعدها، و فى البخاري الرواية التي استدل لها الإمام أحمد بن حنبل .

2 هو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو ابن غنم بن تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة ابن نزار بن معد بن عدنان. وأم عمرو بن كلثوم ليلى بنت مهلهل أخي كليب. ساد وهو ابن خمسة عشر، ومات وله مائة وخمسون سنة

3 وبنو تغلب تعظمها جداً ويروونها صغارهم وكبارهم، حتى هجوا بذلك؛ قال بعض شعراء بكر بن وائل:

ألهى بني تغلبٍ عن كل مكرمةٍ ... قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

يروونها أبداً مذ كان أولهم ... يا للرجال لشعر غير مسؤوم

مُشَعْشَعَة، كَأنَّ الحُصَّ فيها، ... إذا ما الماءُ خَالطَهَا سَخينا
تَجُورُ بذي اللُّبانَةِ عَن هَواهُ، ... إذا ما ذاقَها، حتى يَلِينَا

فهذه القصيدة تبلغ مائة وثلاثة عشر بيتا كما جاءت في (جمهرة أشعار العرب)[1]، وحالة عمرو بن كلثوم فيها حالة المستعلي المتكبر الذي ينظر للناس من عل،والذي يصغر من يقابله، ويقلل من شأنه، كائنا من كان، وفي المقابل يعظم من شأنه!، وشأن قومه، ويرفع أمجاده وأمجادهم إلي قمة سامقة، تتعب من النظر إليها الأبصار، وتكل دونها الرقاب، ويري أول ما يري الطول الظاهر للقصيدة – لاسيما لو قيست بقصائد عصرها– والتي يمكن أن نسميها مطولة شعرية وهو أول علامات اعتداده بنفسه وتأكيده علي ذلك بكثرة الأبيات، كما يلاحظ بوضوح تكرر ضمير المعظم نفسه– ضمير المتكلمين– في قصيدته،وأيضا تكرار لفظ (أنّا) والتي تعطي للمتلقي الشعور بارتفاع الأنا العليا لصاحب النص

بِأنَّا العاصِمُونَ، إذا أُطِعنا، ... وَأنَّا الغارمُونَ، إذا عُصِينا
وَأنَّا المُنْعِمُونَ، إذا قَدَرْنا، ...وَأنَّا المُهْلِكُونَ، إذا أتَينا
وَأنَّا الحاكِمُونَ بما أرَدْنا، ... وأنَّا النَّازِلُونَ بِحَيْثُ شِئنا
وَأنَّا التَّارِكُونَ لِمَا سَخِطنا، ... وَأنَّا الآخِذُونَ لِمَا هَوِينا
وَأنَّا الطَّالِبُونَ، إذا نَقمنا، ... وأنَّا الضَّارِبُونَ، إذا ابتُلِينا
وأنَّا النَّازِلُونَ بِكُلِّ ثَغْرٍ ... يَخَافُ النَّازِلُونَ بِهِ المَنُونا

وفيها الفخر العظيم والإدلال بالأفعال الجليلة التي لم يفعل غيرهم– علي حد تعبيره – مثلها والتي تبين أنهم فاقوا العرب جميعا في مناقبهم وغلبوهم في شجاعة نادرة وبطولة متفردة !!

وَأيَّامٍ لَنَا غُرٍّ، طِوالٍ، ... عَصَينَا المَلْكَ فيها أنْ نَدِينا
وَقَدْ هَرَّتْ كِلابُ الحَيِّ مِنَّا، ... وَشَذَّبْنَا قَتَادَةَ مَنْ يَلِينَا
نُطَاعِنُ ما تَرَاخَى النَّاسُ عَنَّا، ... وَنَضرِبُ بالسُّيوفِ، إذا غُشِينا
بِسُمْرٍ مِنْ قَنَا الخَطِّيِّ لُدْنٍ، ... ذَوَابِلَ، أو بِبِيضٍ يَعْتَلِينَا
نَشُقُّ بها رُؤُوسَ القَومِ شَقّاً، ... وَنَخْتَلِبُ الرِّقَابَ فَيَخْتَلِينَا
تَجُدُّ رُؤُوسَهُم، في غَيرِ وِتْرٍ، ... ولا يَدْرُونَ مَاذَا يَتَّقُونَا

1 ينظر: جمهرة أشعار العرب .أبو زيد القرشي.ط.دار صادر بيروت.

وفيها الفخر الذي جاوز الحد ؛حتى دخل فيما يسميه علماء البلاغة (الغلو) الذي يستحيل أن يوجد مثله ففي أي منطق يسجد عوام الناس لرضيع بلغ حد الفطام – يعني في عامه الثاني أو ربما أقل وأحيانا أكثر– ناهيك عن الجبابرة من الناس الذي يزعم أنهم يسجدون لفطيمهم...!!

إذا بَلَغَ الفِطَامَ لنَا رَضِيعٌ، ... تَخِرُّ لهُ الجَبابِرُ ساجِدِينَا

لنَا الدُّنيا، وَمَنْ أضحَى عَلَيها، ... وتَبطِشُ حينَ تَبطِشُ قادِرِينَا

فالذي يطالع هذه القصيدة دون معرفته لسياقها لابد أن يتهم عمرو بالتكبر والتجبر ويتهمه آخر بالغرور المفرط ويتهمه ثالث بالنرجسية وربما اتهمه رابع بالمرض النفسي لكن الذي يعرف السياق التي وردت فيه القصيدة وملابسات إخراجها سوف يفهم مقصد الشاعر ووجهة نظرة والتي سوف

يصوبها المتلقي ويعيشها معه، فهو رجل كريم في قومه سيد فيهم، ثم يجد نفسه يتعرض لمكيدة تحاك له؛ ليذل ويهان ويضع من قدره، بل وتتعدي هذه الإهانة شخصه إلي أمه، وزاد الطين بله أن هذه المكيدة يتعرض لها علي الملأ، فيهب لقتل الذي يريد أن يفعل ذلك، ثم ينطلق لسانه مصورا هذه الحادثة فتأتي هذه القصيدة .

ولكي يشاركني القارئ الكريم ما يبدو لي من رأي أسوق القصة كما ذكرها صاحب (الأغاني):" أن عمرو بن هند قال ذات يوم لندمائه: هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أمي؟ فقالوا: نعم! أم عمرو بن كلثوم. قال: ولم؟ قالوا: لأن أباها مهلهل بن ربيعة، وعمها كليب وائل أعز العرب، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب، وابنها عمرو وهو سيد قومه. فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن يزير أمه أمه. فأقبل عمرو من الجزيرة إلى الحيرة في جماعة من بني تغلب. وأمر عمرو بن هند برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا في وجوه بني تغلب ؟. فدخل عمرو بن كلثوم على عمر بن هند في رواقه، ودخلت ليلى وهند في قبة من جانب الرواق.... وقد كان عمرو بن هند أمر أمه أن تنحي الخدم إذا دعا بالطرف وتستخدم ليلى. فدعا عمرو بمائدةٍ ثم دعا بالطرف. فقالت هند: ناوليني يا ليلى ذلك الطبق. فقالت ليلى: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها. فأعادت عليها وألحت.

فصاحت ليلى: واذلاه! يا لتغلب! فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم في وجهه، ونظر إلى عمر بن هند فعرف الشر في وجهه، فوثب عمرو بن كلثوم إلى سيفٍ لعمرو بن هند معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره، فضرب به رأس عمرو بن هند، ونادى في بني تغلب، فانتهبوا ما في الرواق وساقوا نجائبه، وساروا نحو الجزيرة"[1].

هنا عند فهم السياق الذي خرجت فيه القصيدة، يتغير ولو قليلا الرأي الذي كان منطبعا في الأذهان عن هذا الشاعر، وتتغير صورته ويعاد الفهم لهذه القصيدة في ضوء سياقها.

ومن أهمية السياق في فهم الشعرَ الذي يؤدي معني خلاف ما يريده صاحبة ما أوردته كتب الأدب عما حدث مع الحطيئة والزبرقان بن بدر إذ قال فيه

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فاستعدَى عليه عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه وأسمعه الشعرَ؛ ولان ظاهر الأبيات وما تؤديه من معاني ليست فيها هجاء ولا شر فقد رد عليه ابنَ الخطاب رضي الله عنه-كما ذكر صاحب (الأغاني)، (التذكرةالحمدونية): ما أسمع هجاءً ولكنها معاتبة"، وذكر صاحب (العقد الفريد) أنه قال:" ما أرى مما قال بأساً"،وذكر صاحب (الشعر والشعراء) و (الكشكول) أنه قال:"ما أعلمه هجاك، أما ترضى أن تكون طاعما كاسيا؟ مع أن عمر رضي الله عنه يعلم انه يريد الهجاء[2] ولكنه درءا للحدود بالشبهات، وحاكم يبغي السلام بين الرعية، قال ما قال مستعينا ومستدلا علي ذلك بظاهر البيت ومنطوقه،لكن صاحب الدعوي الزبرقان بن بدر يعلم السياق الذي جاء فيه

---

1 الأغاني .لأبي الفرج الأصفهاني: ٣ / ١٩٦.تح:لجنة من الأدباء.ط.الثقافة بيروت(د.ت)(بتصرف)

2 يقول ابن عبد ربه :"ولم يكن عُمر يَجهل موضع الهجاء في هذا البيت..."،ويقول صاحب (جمع الجواهر في الملح والنوادر):" ؛ وكان – يقصد ابن الخطاب رضي الله عنه – أعلم بذلك من كل أحد، ولكنه أراد درء الحدود بالشبهات"، ويقول ابن رشيق :ولم يكن حسان –علي علمه بالشعر– أبصر من عمرَ رضي الله عنه بوجه الحكم، وإن اعتلّ فيه بما اعتل .ينظر:العمدة: ٧٦/١.

البيت وأنه هجاء واضح لاسيما وقد قاله عقيب تراخي امرأة الزبرقان في ضيافة الحطيئة وذكر الحطيئة ذلك في بيت سابق:

أزمعت يأساً مبيناً من نوالكم ... ولا يرى طاردا للحر كاليأس

فالزبرقان متأكد أنه يهجوه ؛ لذا قال الزبرقان معترضا علي كلام أمير المؤمنين متعجبا:" أو ما تبلغ مروءتي إلا أن آكل وألبس!" أو؛ قال: والله يا أميرَ المُؤمنين ما هُجيت ببيت قطّ أشدّ! " عليّ " منه.

فأرسل إلى حَسّان فسأله– يريد أن يقيم الحجة علي الحطيئة حتى إذا عاقبه علم أنه لم يظلمه–: هلْ هجاه؟ فقال: ما هجاه، ولكنه سَلَح عليه، ويقال: إنه سأل لبيداً١عن ذلك فقال: ما يسرني أنه لحقني من هذا الشعر ما لحقه وأن لي حمر النعم – فأمر به عمر فجعل في نقير في بئر محَبوسا، وقال: يا خَبيث! لأشغلنك عن أعراض المسلمين٢.ويتضح من فعل أمير المؤمنين أن السياق الذي جاء فيه هجاء الأخطل يؤكد للناس ويفهمون منه هجاء الزبرقان لذا بادر بالعقوبة المناسبة الرادعة للحطيئة ولأمثاله...

ونظير هذه القصة ما حدث أيضا مع عمَر بن الخطاب رضي الله عنه ومع رهط تميم بن مُقبل فهم استعدوه معتمدين علي السياق التي وردت فيه الأبيات، وسيدنا عمر كان يعتمد في حكمه علي ظاهر الأبيات، وما يقوله

1وذكر صاحب(نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب): ٢ / ٤٩٨.أنه سأل عن ذلك كعب بن زهير، فقال: والله ما أودّ بما قال له حمر النعم، وقال حسان: لم يهجه، ولكن سلح عليه بعد أن أكل الشّبرم.

2 فكتب إليه من الحَبس يقول:

ماذا تقول لأفراخ بذي مَرَخ ... زغب الحَواصل لا ماء ولا شَجَرُ

ألقيت كاسبَهم في قعر مظلمة ... فاغفر عَليك سلامُ الله يا عُمر

أنت الإمام الذي من بعد صاحبه ... ألقت إليك مَقاليدَ النُّهى البَشر

ما آثروك بها إذ قدّموك لها ... لكنْ لأنفسهم قد كانت الإثر

فأخرجه عمر، وجلس على كرسي، وأخذ بيده شفرة، وأوهم أنه يريد قطع لسانه، وقال: والله لولا أن تكون سنة لقطعت لسانك فضج ؛فأمر بإطلاقه وأخذ عليه ألا يهجو رجلاً مُسلماً.وهذه القصة مشهورة مذكورة في معظم كتب الأدب

منطوقها، مع علمه رضي الله عنه بسياقها، لكنه يتصرف كحاكم يتجنب الظلم، ويفسر النصوص لصالح المتهم ؛ درءا للحد بالشبهة، فقد هجا النجاشيُ رهط تميم بن مُقبل، فاستعدَوا عليه عمَر بن الخطاب رضي الله عنه وقالوا: يا أميرَ المؤمنين، إنّه هجانا. قال: وما قال فيكم؟ قالوا: قال:

إذا الله عادَى أهل لُؤم ورقة ... فعادَى بني عَجْلان رَهْط ابن مُقبل

قال عمر: هذا رجل دعا، فإن كان مظلوماً استُجيب له، وإن لم يكن مظلوماً لم يُستجب له. قالوا: فإنه قد قال بعد هذا:

قبيلته لا يَغْدرون بذمّة ... ولا يَظلمون الناسَ حَبّة خَرْدل

قال عمر: ليت آلَ الخطاب مثل هؤلاء. قالوا: فإنه يقول بعد هذا:

ولا يَردون الماءَ إلا عشية ... إذا صَدر الوُرّاد عن كُل مَنْهل

قال عمر: فإن ذلك أجَمّ لهم وأمكن. قالوا: فإنه يقول بعد هذا:

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من كعب بن عوف ونهشل

قال عمر:كفي ضياعا من تأكل الكلاب لحمه، قالوا: فإنه يقول بعد هذا:

وما سمّي العَجلان إلاّ لقولهم ... خُذ القعْب واحلب أيها العَبْد واعجل

قال عمر: كلنا عبد، وسيّد القوم خادمُهم، فما أرى بهذا بأساً.فقالوا: يا أمير المؤمنين هجانا،قال ما اسمع ذلك، فقالوا: فاسأل حسانا؟ فسأله فقال: ما هجاهم بل سلح عليهم !فسجنه عمر رضي الله عنه[1].

وهذا الفهم الذي فهمه عمر رضي الله عنه، هو الفهم الذي يتبادر لذهن أي قارئ لهذه الأبيات،لاسيما إذا كان لا يعرف الشر الذي بين الشاعر ومن يهجوهم، بل ربما لا يخطر بباله أن هذا الكلام هجاء مطلقا نظرا لأنه لا يدري الملابسات والسياق الذي قيلت فيه هذه الأبيات

فالسياق من أهم القواعد والضوابط المعينة على فهم النصوص خصوصا للناقد، وربما كان وحده الفيصل في معني البيت أو الأبيات لاسيما إذا كان فيها لبس أو تحمل أكثر من معني، فإذا كان الشعر يُسَاقُ و يُصَاغ وفق مناسبات الأغراض والسياق، لذا فإن الغرض أو السياق حينئذ يكون

---

1 العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده .لابن رشيق القيرواني: ١/٥٢.تح:محمد محي الدين عبد الحميد ط.دار الجيل.(الخامسة) ١٤٠١هت/١٩٨١م .

مُعيناً فى فهم غير الواضح من النصوص الشعرية، و نسوق لذلك مثالا قول المتنبى [1]:

و أظلمُ أهلِ الظُّلمِ مَنْ بَاتَ حَاسِداً لِمَنْ باتَ فى نَعمائِه يَتَقَلَّبُ

حيث ذهب ابن الأثير إلى أن البيت يستخرج منه معنيان ضدان [2] : "أحدهما : أنّ المُنعَمَ عليه يحسُد المُنعِمَ، و الآخر : أنّ المُنعِمَ يحسُد المُنعَمَ عليه".

و تعقبه ابن أبى الحديد، ورد كلامه اعتماداً على :"أن لفظة البيت تشعر بأنه أراد المُنعَمَ عليه يحسُد المُنعِمَ، [3] و اعتماداً على سياق الشعر ؛ لأن المتنبى قال قبله [4] :

ثُريدُ بكَ الحُسَّادُ ما الله دافعٌ و سُمْرُ العوالى و الحديدُ المُذَرَّبُ
فإن طلبوا جَدْواك أعطوا وحُكِّموا وإن طلبوا الفضل الذي فيك خيبوا
ولو جاز أن تُعطى عُلاك وهِبْتها ولكنْ من الأشْيَاءِ ما ليس يُوهبُ
وأظلمُ أهلِ الظُّلمِ مَنْ بَاتَ حَاسِداً لِمَنْ باتَ في نَعمائِه يَتَقَلَّبُ

قال ابن أبي الحديد :"فهذا يدل على أن الممدوح يعطى هؤلاء؛ وهم يحسدونه وإذا كانت السياقة تدل على أنة أراد ذا المعنى.خرج من كونه دالا معنيين ضدين كما حكم به في البيت المتقدم".

ويقصد ابن أبى الحديد بسياق الشعر سياق النص بدليل إيراده الأبيات السابقة على البيت المشكل، وفهم ابن أبي الحديد للبيت، هو الأصوب والأصح ؛ بدلالة الأبيات، وقد وفق لهذا الفهم بمعرفته للسياق، وفهمه له كما نص هو علي ذلك .وأعجب من هذا ما قاله القاضي الجرجاني حول قول الأعشى:إذا كان هادى الفتى في البلاد صدر القناة أطاع الأمير

حيث قال:" فإن هذا البيت – كما تراه– سليم النظر من التعقيد؛بعيد اللفظ عن الاستكراه؛لا تشكل كل كلمة بانفرادها على أدنى العامة؛ فإذا أردت

---

1 المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر.ضياء الدين بن الأثير :١/٩٤.تح:أحمد الحوفي، بدوي طبانة.ط.مطبعة نهضة مصر(د.ت)

2 المصدر نفسه :١/٩٤.

3 الفلك الدائر على المثل السائر :٥٥.

4 المصدر نفسه :٥٦.

الوقوف على مراد الشاعر فمن المحال عندي؛والممتنع في رأيي أن تصل إليه إلا من شاهد الأعشى بقوله،فاستدل بشاهد الحال، وفحوي الخطاب فأما أهل زماننا فلا أجيز أن يعرفوه إلا سماعا، إذا اقتصر بهم من الإنشاد علي هذا البيت المفرد ؛ فان تقدموه أو تأخروا عنه بأبيات لم أبعد أن يستدل ببعض الكلام علي بعض، وإلا فمن يسمع بهذا البيت فيعلم انه يريد :أن الفتي إذا كبر فاحتاج إلي لزوم العصا أطاع لمن يأمره وينهاه واستسلم لقائده، وذهبت شرّاته"![1] .

الخاتمة وأهم النتائج

الحمد لله وكفى وصلاة علي عباده الذين اصطفى وعلي إمامهم نبينا المصطفي وسلم تسليما كثيرا وبعد ..

فقد ختمت البحث وأرجو أن تكون وضحت فيه وجهة نظري القائلة بأهمية السياق وتكون ورقاته قد أبانت ذلك بوضوح وفتحت بابا للباحثين للولوج إلي هذا الموضوع البكر في الأدب وقد ظهر مما تقدم أهمية السياق لأنه ركن من أركان الفهم في كل ما يؤدي لمعني من الكلام وبان دور السياق في فهم كتاب الله تعالي وفي فهم سنة النبي صلي الله عليه وسلم في فهم الشعر بل ودوره في فهم كل أنواع ما ينكره الإنسان وهذا الذي يحتاج إلي دراسات كثيرة وأرجو أن يكون هذا البحث موفقا فإن كان كذلك فلله الحمد والمنة وإن كان ثمت نقص أو قصور فهذا حال عمل البشر "ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا" والله من وراء القصد وهو يقول الحق ويهدي السبيل...؛

---

1 الوساطة بين المتنبي وخصومه.لعلي بن عبد العزيز الجرجاني:٤١٨.تح:محمد أبو الفضل إبراهيم،علي محمد البجاوي.منشورات المكتبة العصرية (د.ت)

أهم النتائج:

- أهمية السياق للفهم السليم والدلالة الصحيحة،والذي هو أصل للتواصل والتعايش للإنسان مع من يماثله من أفراد جنسه .

– قيمة السياق في فهم كتاب الله تعالي، وترجيح تفسير علي تفسير، أو استنباط حكم شرعي.

– قيمة السياق في ترجيح رأي علي رأي، من آراء العلماء في فهمهم لحديث الرسول صلي الله علية وسلم.

–أهمية السياق في تصويب الأفهام التي تأخذ ظاهر لفظ دون معرفة السياق فتقع في سوء الفهم.

– عن طريق السياق يمكن فهم مراد المتكلم فهما صحيحا لاسيما إذا كان مراده غير واضح في نصه، أو معكوس الدلالة قصدا .

- إغفال السياق قد يؤدي إلي جناية علي النص، أو علي صاحبه .

– احتياج السياق إلي دراسات أدبية كثيرة تبلوره وتوضحه وتجليه.